



بمعلم الاب لافس البسوي

هذا العنوان نشر مؤرخاً السيد سليمان ابو عزّ الدين كتاباً " يستحقّ اكثر من وصف اعتيادي . فهو اول درس دقيقٌ خاصٌ بهذا الموضوع في اللغة العربية ، كما انه اول تأليف تاريخي يمتاز عن كل ما ظهر في السنوات الاخيرة من كتب التاريخ ، سواء في ذلك بلادنا اللبنانية والسورية والقطر المصري . وانه ليسرنا القول ان المؤلف نال من الروح الانتقادي ما حمله على نبذ الاساليب القديمة التي علق بها سلفاؤه من مؤرخي الشرق ، فتركوا لنا تلك المجلدات الضخمة بظاهرها ، الفقيرة بضمائها .

عرف السيد ابو عزّ الدين ان « اهل الدار ادري بما فيها » ، ولكنه لم ينف به عن ان من لا يصني الا لجرس واحد ، لا يسمع سوى صوت مفرد . فاستخلص نتيجة هذين المثلين ، وراح يوسع نطاق اجانبه الاولية ، ويستنطق معاصري تلك الحوادث من وطنيين واجانب ايضاً ، وكثيراً ما كانت مرااكر هولاء الرسية تمكنهم من معرفة امور سرية لم يقف عليها ابناء البلاد . فابتدأ من حيث يجب ان يتبدى ، كما يُقال ، ودرس اهم ما كتب في الموضوع ليس فقط بلغة العربية بل باللغتين الانكليزية والفرنسية ايضاً ، وزاد على ذلك اطلاعه على بعض المجاميع المخطوطة .

وقد اثبت لائحة هذه المصادر ، من مطبوعة ومخطوطة ، في اول كتابه ؛
 و اشار الى ماآخذ منها بدقّة في اسفل صفحاته ، حتى ان من قرأ ذلك يشعر
 بان المؤلف لم يكتب سرد جدول بعنوان الكتب ليومّه على مطالعته ، بل
 انه درس حقاً تلك المؤلفات . وهي عادة علمية ضرورية لاسيا في الشرق ،
 لكي يثق المطالع باقوال الكاتب ، ويمكنه ، اذا اراد ، ان يتقد نتائج
 بعرضها على الاسباب التي استخلصت منها . وقد طالبنا دعا « المشرق » مؤلفينا
 الكرام الى احترام هذه العادة ، لاسيا في القسم المخصص فيه لوصف الكتب
 الجديدة . وانه لمن اسباب السرور ان نلاقي كاتباً احترام هذه العادة الاحترام
 الواجب ، فنهئته ، وتنتهي ان يقوم كثيرون ويتبعوه في خطئه الحميدة .

وبعد ان اعد المؤلف هذه المواد المختلفة ، بدأ عمله بطريقة عرفتنا كم هو
 عليه من دقّة البحث ، وحسن الاختيار ، وكيف يقرن صفات المورخ العالم
 الى ميّزات الكاتب البليغ . وانا نكتفي هنا بمثل واحد هو وصف موقعة
 حمص التي نشبت في ٨ تموز ١٨٣٢ بين الاتراك و ابراهيم باشا ، نذكره مشابهاً
 للوصف التاريخي الادي . قال (ص ٩٥ وفيها يذكر النبي مندو والصواب مند
 او مندة) :

ان القائد العثماني رتب جيشه كله في صفين اثنين جاعلاً جناحه الايمن في مكان منفصل
 عن سائر الجيش في جزيرة واقعة ما بين مجرى نهر العاصي وقناة ساء (١) حاسباً ان في مثل
 هذا الموقع المنعزل يصعب على جيش العدو اقتحامه لكن جهل ان السفبات التي تقيم جيش
 العدو عن الوصول اليه تقيم ايضاً ذلك الجناح من جيشه عن المبادرة الى انجاد سائر الجيش
 العثماني عند الحاجة . و اضاف الى خطائه هذا خطأ آخر اذ وزع مدافعه بنسبة مدفع واحد
 لكل كتيبة فافقدها هذا التوزيع التأثير المنتظر من نيران المدافع المتجمعة . (٢) اما ابراهيم
 باشا فرتب جيشه في ثلاثة صفوف جعل جناحها الايسر متكئاً على نهر العاصي والجناح الايمن
 الى جهة البادية ووضع الصفوف المشاة في الوسط والحياطة على الجناحين اسل المدافع نفسها الى
 قسبت فقط فوضع ثلاث بطاريات في الصف الاول واحدة منها على كل جانب وواحدة
 في الوسط . ووضع الاربع البطاريات الباقية مع مدفعي هوبنتر وراء صف المشاة الثاني (٣)
 وبعد ان تم ترتيب جنوده وادرك قط الضعف في عدوه اطلق خيالة اليد وناوشة العثمانيين

The Present State of The Turkish Empire, p. 277 Cadalvene et Barault. (١)

The present State of The Turkish Empire, pp. 275-276 (٢)

(٣) المؤلف قه ص ٢٧٥

ثم سلط النيران الحامية على ميرتهم وقلبهم فضعضها (١) ولم تستطع اللجنة المبادرة الى تجديد (٢) لما اوضحناه قبلاً من صعوبة الموقع الذي خصها به قائدها العام وبعثاً حاول الدنايون اعادة تنظيم صفوفهم لان المصريين هاجروهم هجوماً عنيفاً وسلطوا نيرانهم الآكلة على جموع اعدائهم المغتلة النظام فلم يتركوا لهم فرصة لاستجماع قوتهم او الثبات في مواقعهم فلجأوا الى الفرار.

* * *

على ان خطراً شديداً كان يتربص الموثف في موضوع تكثر فيه الممارك ، وهذا الخطر هو ان يؤخذ الكاتب بشخصية ذاك القائد الظافر فينصرف عملاً سواه الى ذكر مواقفه ومآتيه الحربية . وبكلمة اخرى كان يُخشى ان يُجيب مشار التقع عن عيني المؤرخ ما قام به ابراهيم باشا من الاعمال الادارية ، وما رعى اليه من الاصلاحات في سورية . ولكن ، لحسن الحظ ، تخلص الموثف من هذا الخطر ، فلم يجحف ، في وصفه الرجل العسكري ، باعمال الاداري المصلح بل اتبه لنوان كتابه الثوري ، وهو « تاريخ بدء النهضة الحديثة في الشرق الادنى وصفحة من تاريخ المسألة الشرقية » ولما قاله في المقدمة من ان حكومة محمد علي في سورية « كانت فاتحة عصر جديد نُثرت في اثنائه بذور النهضة الادبية والسياسية في الديار السورية » . فاخذ بهذا البرنامج ، وذكر في مجلته الانشاءات والاصلاحات التي اجراها ابراهيم في سورية . حتى اذا قارب الانتهاء خصّ فصله الاخير (ص ٣١١ . . .) بدرس « تأثير حكومة محمد علي » حتى في ما بعد اضحلالها من سورية .

فبدأ بذكر التأثير الاجتماعي ، ومن ذلك انه « قبل دخول ابراهيم باشا الى سورية لم يكن مباحاً للمسيحيين ان يتعمروا بالعساكن البيضاء او الخضراء او الحمراء ، وكانت محظورة عليهم بعض امور غير هذه . وكانت تولية المسيحيين مناصب الحكومة قايمة الوقوع . فتحكومة محمد علي ازال كل هذه التوارق ، وابتاحت للمسيحيين ما هو مباح للمسلمين من لباس وركوب خيل وحقوق اجتماعية ووطنية ، وقلدت كثيرين من المسيحيين الوطنيين والافرنج الوطائف في الجيش والحكومة الملكية ، ومنتهم الرتب والالاقاب . » (٣) حتى ان

(١) Soliman Pacha, p. 212

(٢) ص ١٣

(٣) الموثف ص ٣٧٧

الامير بشير نفسه كان يتنظر وصول المصريين ليتظاهر بنصرانته .
ثم ان هناك تأثيراً علياً وادبياً لا يُستهان به ، لا من حيث ان الحكومة
المصرية افسأت المدارس ، وهي لم يمكنها الوقت من ذلك لما كانت مشغولة
به من محاربة الاعداء الخارجيين ، وقمع الثورات الداخلية ، ولكن « لان
تنظيماتها استوجبت اختيار المتنوعين لادارة الاحكام والقيام بالاعمال القضائية
والمالية والكتابية . وسهلت قدوم الافرنج من 'مرسلين دينيين وتجار وغيرهم ،
فانشئت بواسطتهم المدارس .»^١

اما التأثيرات الادارية والسياسية فكان منها التمييز بين السلطة التنفيذية
والسلطة التشريعية ، وتأليف مجالس المشورة في المدن فتعدّ فيها السوريون
ادارة شؤونهم شيئاً فشيئاً ، وقرار الامن على الطرق العامة ، بمد ان كان
الاشقياء يميثون فساداً حتى على ابواب المدن ، وكان الفر ، من بيروت الى
دمشق مثلاً ، يكاد يستحيل على الرجل الفرد . وهذه المناسبة يذكر الموثق
مقطعاً جيداً من اغنية لبنانية قديمة ، وهو :

جوزك يا المليحة راح عالشام وحده
جوزك يا المليحة بر زيد الحلالي

بيد اننا عبثاً فقتنا ، بين هذه التأثيرات ، عن تأثير اجتماعي نتج من حكومة
محمد علي في سورية ، وهو نقضها الاتفاق الذي كان سائداً حتى ذاك الوقت ،
بين الدرور والمسيحيين . وهنا تدفعنا الحقيقة الى اعادة ما قلناه في تاريخنا
لسورية (المجلد الثاني ، ص ٧٠) من ان ذلك الاتفاق الظاهر لم يكن
يستند الى أس ثابت ، لان المساواة لم يكن لها من أثر بين الفريقين فكان
الدرور يعتبرون انفسهم من عنصر اسى من مواطنهم ، اما المسيحيون
فكانوا يحسبون لبنانيين من درجة ثانية او ثالثة . ولم يكن ترفع الدرور هذا
نتيجة تعصب ديني ، ولكن مفعول عصبية عنصرية كانت تهيئ بهم قد نفهم
الى الكبرياء الجنسية . والزهر ؛ وهي من نوع تلك العصبية الجنسية التي كان

ينتقدها الدرّوز انفسهم على الاتراك . على انه بدخول المصريين الى سورية ، دار دولاب الحظ ، فانقلبت تلك الاعتبارات جميعها .

وكان الدرّوز قبل ذلك ينظرون بعين الحذر والغضب الى اعمال الامير بشير ، فإ ان رأوا الفرصة سانحة حتى ثاروا على ابراهيم باشا وعلى حليفه . فإ كان من السلطة ألا ان نفت البعض من رؤسائهم ، واجبرت البعض الآخر على الهرب ؛ فصار كثير من املاكهم في ايدي المسيحيين الذين حاربوا في جيوش المصريين ، فاستند اليهم ابراهيم اذ رآهم ارقى من مواطنيهم الدرّوز تعليماً وتهذيباً بفضل معالي المرسلين . ولم تنقض سنة ١٨١٠ ، حتى رجع مشايخ الدرّوز الى بلادهم ، دون ان يستفيدوا شيئاً من ذلك الاختبار المولم ، فلم يفكروا الا بمحبقهم في استرجاع ما كان لهم من الميراث والخصائص القديمة ، ظانين انه لا يزال بإمكانهم ان يمدوا المسيحيين الى حالتهم القديمة من الانحطاط والخضوع . امأ هولاء . فكانت نفحات تلك الحرية الهابة من جهة المصريين عودتهم الاستقلال فلم يشاؤوا التخلي عنها ، وكانوا يشعرون ان ورائهم دولة اوربية ، هي فرنة ، تعينهم في الشدائد وتساعدهم على المخي في جهودهم الاستقلالية .

ولهذا لما عاد الاتراك وأسرنا مجلساً مشتركاً للشورة ، رفض الدرّوز الاشتراك فيه ، لان ترفهم النصرى كان يربهم أن من الحطة ان يُعدوا مساوين للمسيحيين . ولعلهم كانوا يتوهمون ان تلك المساواة ، اذا قبلت ، ستعودهم يوماً الى تحقق انحطاطهم عن مستوى المسيحيين ، وهولاء امضى سلاحاً في العراك السلمي الذي يقوم به افراد هيئة اجتماعية منظمة . . . وظلّ الخلاف يتفاقم الى ان اذى الى تلك الثورات والمعارك الاهلية التي دامت حتى سنة ١٨٦٠ ، وهي سنة مشرّومة كم نود لو كان بإمكاننا حذفها من تاريخ لبنان !